الرسالة

(عبرانيين ١٣: ٧-١٦)

يا إخوةُ اذكُروا مدبِّريكم الذين كلَّموكم بكلمةِ الله. تأمَّلوا في عاقِبَةِ تصرُّفهم واقتَدوا بإيمانِهم* إنَّ يسوعَ المسيحَ هو هو أمسِ واليومَ وإلى مدى الدهر* لا تنقادوا لِتعاليمَ متنوّعةٍ غريبة. فإنَّه يَحسُنُ أن يُثبَّتَ القلبُ بالنعمة لا بالأطعمةِ التي لم ينتفِعِ الذينَ تعاطَوْها* إنَّ لنا مذبحاً لا سُلطانَ للذينَ يخدُمونَ المسكِنَ أن يأكلوا منه* لأنَّ الحيواناتِ التي يُدخَلُ بدمِها عن الخطيئةِ إلى الأقداسِ بيدِ رئيسِ الكهنةِ تُحرَقُ أجسامُها خارجَ المحلَّة* فلذلك يسوعُ أيضاً تألَّم خارجَ البابِ ليقدِّسَ الشعبَ بدَمِ نفسِه* فلنخرُجْ إذاً إليه إلى خارجِ المحلَّةِ حامِلينَ عارهُ* لأنَّهُ ليسَ لنا ههنا مدينةٌ باقيةٌ بل نطلُبُ الآتية* فلنقرِّبْ به إذاً ذبيحةَ التسبيحِ كلَّ حين وهي ثمرُ شِفاهٍ معتَرِفةٍ لاسمِه* لا تَنسوْا الإحسانَ

قداس رأس السنة

صباح الخميس ١ كانون الثاني ٢٠١٥ وبمناسبة ذكرى ختانة ربنا يسوع المسيح بالجسد وتذكار أبينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير ورأس السنة ترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة القداس الإلهي في كاتدرائية القديس جاورجيوس في ساحة النجمة بحضور حشد من المؤمنين. بعد قراءة الإنجيل المقدس ألقى سيادته العظة التالية:

العدد ٢/٢٠١٥

الأحد ١١ كانون الثاني

الأحد بعد الظهور الإلهي

تذكار أبينا البار ثاودوسيوس

رئيس الأديار

اللحن السادس

إنجيل السَحَر التاسع

«اليوم نفتح صفحة جديدة من تاريخ حياتنا، وقد طوينا بالأمس الورقة الأخيرة من السنة المنصرمة التي لم تحمل لنا الكثير من الخيرات والإيجابيات، لكننا نشكر الله دوماً وعلى كل شيء، ونرفع الدعاء له باستمرار كي يسكن قلوبنا ويبارك حياتنا وينير دربنا لكي لا نقترف الآثام ونقع في الخطايا. واليوم خاصة، وفي نهاية القداس الإلهي، سوف نرتل: «يا مبدعَ الخليقة بأسرها، يا مَن وضعتَ الأوقاتَ والأزمنةَ بذات سلطانك، باركْ إكليلَ السنة بصلاحك يا رب، واحفظ بالسلام الحكامَ ومدينتَك، بشفاعات والدة الإله وخلّصنا». كما سنسأله أن يؤهّلنا «لنجوز هذه السنة المقبلة بسيرةٍ مُرضيةٍ لعزّته الإلهية، مرشداً إيانا بصلاحه ومسهّلاً لنا مناهج الخلاص». كما سنسأله «أن يوطّد روح السلام في العالم أجمع».

إلهنا إله المحبة والسلام لا إله الحقد والبطش والسيف. قال الرب يسوع: «كلُّ الذين يأخذون السيفَ بالسيفِ يهلكون» (متى ٢٦: ٥٢). لذلك ترى المسيحية أنّ أيَّ حربٍ باسم الدين هي حربٌ ضد الدين. المسيحية دين المحبة والتسامح والإنفتاح وقبول الآخر، دين الحرية التي خلق اللهُ الإنسانَ عليها. نحن بالنعمة مخلَّصون (أنظر أفسس ٢: ٥و٨) . الرب افتدانا جميعاً لكننا نخلص بملء حريتنا، بقبولنا دعوةَ الله لنا. الدعوةُ عامة، لكنّ الإستجابة هي التي تجعلنا من المختارين. لذلك يقول الربُّ إنّ المدعوين كثيرون والمختارين قليلون.

لقد سمعنا في إنجيل اليوم أنّ العذراء والدة الإله ويوسف كانا يفتشان عن يسوع، وقد أضاعاه في طريق عودتهما من أورشليم بعد العيد، ولما وجداه وقالا له «كنا نطلبك متوجعَين فقال لهما لماذا تطلباننني. ألم تعلما أنه ينبغي لي أن أكون فيما هو لأبي» (لو ٢: ٤٨-٤٩).

هذا يجب أن يكون جواب كل مسيحي. المسيحي الحق هو أولاً وقبل كل شيء تلميذٌ أمينٌ لمعلّمه، لإلهه، للرب يسوع المسيح الذي «جاء إلى العالم ليخلّص الخطأة الذين أولهم أنا» (١تيمو ١: ١٥). مَن وعى هذه الحقيقة ولبس المسيح وحفظ وصاياه يغرق في أنوار هذا السيد الظافر بمحبته، ويتخلّص من آلامه وبؤسه وخطاياه ويرنو إلى الخلاص المعدّ لنا سلفاً بيسوع المسيح.

الله خلق الإنسان، كلَّ إنسان، على صورته ومثاله. لذلك نحن نؤمن أنّ البشر متساوون وأنّ كل إنسان، مهما اختلف عنا أو خالفنا الرأي، هو أخٌ لنا من واجبنا محبته واحترامه والمحافظة على كرامته وحريته وحقه في الحياة. لذلك لا تبارك المسيحيةُ العنفَ والقتلَ والخطف والتعذيبَ وكلَّ إساءة تُقترف بحق أي إنسان. كما ترفض أي تمييز عنصري أو ديني، وتدين إلغاء الآخر أو تهجيره واقتلاعه من بيئته ومجتمعه، أو إجباره على فعل ما لا يريد فعله. المسيحية تدعو إلى السلام بين البشر لأنّ إلهنا إله السلام وقد قال «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون» (متى ٥: ٩).

المسيحية دين الحوار أيضاً، الحوار مع الخالق والحوار مع الآخر. إنّ كل صلاة ينطق بها المؤمن هي حوار مع الله. أما الحوار مع الإخوة فيلغي المسافات بينهم ويجمعهم في لقاء مبارَك إن سادته المحبة التي هي ترياق البشر وإكسير الحياة، التغت المسافات وتمت اللقيا. الخطيئة تعيق الأخوّة، أما المحبة المعاشة بصدق فتتجاوز الحواجز وتبني. المحبة لا تسقط أبداً.

هذا يقودني إلى الحديث عن دور الإنسان المسيحي المؤمن في مجتمعه. المؤمنُ الحقيقي إنسانٌ اقتبل الله في قلبه لذلك يحافظ على طهارة نفسه وجسده لأنهما إناء لله. المؤمن يعي قيمة ذاته أنه هيكلٌ للروح القدس، ويعي أنّ عليه أن يكون نوراً للعالم وخميرةً صالحة وملحاً في الأرض. فمَن لا يحترمُ اللهَ الساكنَ فيه، ولا يحترم قريبه الإنسان ويهتم لكرامته، ومَن لا يعتمد الصدق والأمانة والنزاهة في علاقته مع الآخر، ومَن يضمر الحقد والشر والحسد وغيرها من الآفات المدمّرة للنفس، لا يستحق أن يُسمى باسم المسيح.

بالنسبة لنا الله هو الطريق والحق والحياة وهو يتجلّى لنا في الأناجيل التي كتبها الرسل الذين عاينوا الربَّ يسوع وسمعوه وآمنوا به ونقلوه لنا. ونحن بقدر ما نتعرّف على الإنجيل المقدس نتعلّم الإنسحاقَ أمام قدرةِ الله وعظمتِه في تواضعه، إنما نعي أيضاً المسؤوليةَ العظيمةَ الملقاةَ على عاتقنا نحن المؤمنين به: أن نكون شهوداً له أمناءَ على رسالته. هنا لا بد من التذكير أننا في كل مرة نقرأ فيها نصاً إنجيلياً تنفتح أمامنا آفاقٌ جديدة وكأنّ اللهَ يكلّمنا. إنّ قراءة الإنجيل لا تشلُّ العقل وتمنعه عن التفكير بل تحثّه على قراءةٍ خصبةٍ للنص، على استقراءِ النص وفهمِ ما يريد اللهُ قولَه لنا. الله يتجلّى لنا أيضًا في محبّيه وفي قدّيسيه وكلّ الّذين عرفوا طاعته.

خلاصة القول أنّ على المسيحي أن يقدّس العالم بوجوده فيه. العالمُ اليوم ينجرف نحو الصراعات الدينية والطائفية ورسالتُنا إعطاءُ النموذج في قبول الآخر ومحبته، في محاورته والعيش معه. رسالتُنا إرساءُ السلام ونشرُ الحق وابتغاءُ العدل. واجبُنا العملُ على تطوير المجتمع والدولة. دورُنا تقديمُ نموذجٍ للحداثة والتقدّم مع تمسكنا والمؤاساةَ فإنَّ اللهَ يرتَضي مثلَ هذه الذبائح.

الإنجيل

(متى ٤: ١٢–١٧)

في ذلك الزمان لمَّا سمعَ يسوعُ أنَّ يوحنا قد أُسلِمَ انصرفَ إلى الجليلِ* وتركَ الناصرةَ وجاءَ فسكنَ في كَفْرَناحوم التي على شاطئِ البحرِ في تخومِ زَبولونَ ونَفْتاليمَ* ليتمَّ ما قيل بإشعياءَ النبي القائل: أرضُ زبولونَ وأرضُ نفتاليم طريقُ البحرِ عَبرُ الأُردنِ جليلُ الأُمم* الشعبُ الجالسُ في الظلمةِ أبصرَ نوراً عظيماً والجالسون في بُقْعةِ الموتِ وظلالِه أشرقَ عليهم نورٌ* ومنذئذٍ ابتدأ يسوعُ يكرِزُ ويقولُ: توبوا، فقدِ اقتربَ ملكوتُ السموات.

تأمل

«توبوا، فقد اقترب ملكوت السموات».

الويل للذين يضيعون زمن التوبة باللعب والضحك فهم باطلًا سيطلبون ما أضاعوا، فلن يجدوه. سيصرخون بدموع وتنهدات دون أن يجدوا عطفاً. ولكي اختصر كلامي: الويل للذين سوف يكونون إلى

اليسار لأنهم سوف يغمى عليهم ويرتعدون ويصرفون على أسنانهم عندما يسمعون هذه العبارة: «لا أعرفكم». عندها سوف يُطردون من المنبر الرهيب ويُسلّمون بخوف كبير إلى يدي الموت لكي يرعاهم (مز ٤٨: ١٥).

إن ذكر مثل هذه الساعة الرهيبة هو حقاً مخيف. مَن يستطيع أن يتكلّم عنها؟ إن شئتم أن تسكبوا دموعاً فتعالوا اسمعوا ما ينتظرنا في ذلك اليوم العظيم.

سوف ينفصل الأساقفة عن إخوتهم الأساقفة، والكهنة عن إخوتهم الكهنة، والشمامسة عن الشمامسة الآخرين. سينفصل الملوك عن بعضهم بعضاً ويبكون كالأطفال ويقفون كالحيوانات. سوف يرتعد حكام الشعوب ويفتشون هنا وهناك دون أن يروا عوناً، لأن الغنى يتلاشى وكذلك الممالقات. عندئذ يُفصل الرهبان العائشون في الكسل، لأنهم ابتعدوا عن العالم ولم يفكّروا إلاّ عالمياً. عندئذ سوف يُفصل الأهل عن الأولاد والأصدقاء عن بعضهم بعضاً والأقارب كذلك. سوف ينفصل الأزواج الذين لم يحفظوا مضجعهم طاهراً (عب ١٣: ٤).

يعتريني الخوف عند رواية كل هذا، فأتوقّف... بإيماننا الذي لا يعمي بصائرنا بل يفتح قلوبنا وأذهاننا وعقولنا على الحياة.

نقرأ في سِفر الرؤيا: «ها أنا أصنعُ كلَّ شيءٍ جديداً» (رؤ ٢١: ٥). لتكنْ بدايةُ هذا العام بدايةَ عهدٍ جديد لنا مع الخالق نعاهده فيه على تنقيةِ ذواتنا ونذرِ حياتنا للخير والصلاح، وعلى الحفاظ على خليقته، إنساناً وطبيعة وبيئة، وعلى القيام بكل ما يساهم في بنيانها.

على رجاء أن نفي بالعهد، أسأله أن يبارككم ويغدق عليكم نِعَمه السماوية، وأن يلهم حكامَنا ويؤازرهم في كل عملٍ صالح، وأن يحمي وطننا ويُعتقه من كلّ ما يعيق تقدّمه وازدهاره، ومن كل مَن يشاء له الشر والسوء.

حماكم الربّ من شر الفساد والفاسدين، ومن سوءِ كلّ من يستهين بحياة الناس ولقمة عيشهم، وجشعِ من يتاجر بصحتهم ونظافة طعامهم.

لا تدعوا الخوف يسيطر عليكم. تشبّثوا بالأمل لأنه يعطي معنى للحياة، وبالرجاء أنّ الله معكم، وإن كان اللهُ معكم فمن عليكم؟».

الولادة في المسيح

«أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أَولاد الله أي المؤمنون باسمه. الذين وُلدوا ليس من دمٍ ولا من مشيئة جسدٍ ولا من مشيئةِ رجل بل من الله» (يو ١: ١٢–١٣). يدعونا الإنجيل أن نقبل المسيح من كل قلوبنا وأن نجعل منه محور حياتنا ووجودنا على الأرض. هذا هو المعنى الحقيقي لأن نكون مسيحيين أي المؤمنين بأن يسوع هو «ابن الله» (يو ١٩: ٧) وبأنه يهبنا ذاته لنتحد معه ويكون هو «الكل في الكل» (١ كور ١٥: ٢٨). ولكن كيف يكون «قبولنا» للمسيح وكيف نولد فيه من جديد؟

يتعلّق الأمر بوعينا لحاجتنا إلى الرب وإلى حضوره في حياتنا. لكن المشكلة أننا نعيش اليوم في مجتمعات لا تقيم وزناً لفضائل مثل ضبط الحواس وصون النفس من الزلل. مجتمعاتنا الجادة في طلب السعادة عبر وسائل الاستهلاك والتكنولوجيا لم تعد تتحسس الأبعاد الروحية لقيم كالجمال والطبيعة والفن... البشر جملةً في حركة متسارعة إلى اللهو. كلام كثير يذاع هنا وثمّة عن «حقوق الإنسان وخيره والارتقاء بحياته»، ومعظمه لا غاية له سوى استغلال الإنسان وانتهاك حرماته أو بكلام آخر جعله باسم الحرية عبداً. هذا، ويذهب غير قليل من المحلّلين الاجتماعيين إلى أنه لم يعد من مكان للبعد الروحي في حياتنا. حضارة اليوم تدعو كلّ واحد منّا وتمهّد له السبيل للإستغناء عمّا هو ديني روحي، ليكتفي بالغايات الآنية لوجوده، فيرتاح إلى ما يحقّقه من إنجازات بشرية صغيرة كانت أم كبيرة، ويبني أهراءات المال أو السلطة التي يتوهّم أنّها تؤمّن مستقبل مجتمعه واستقراره.

غير أن الحقيقة الأكثر صدقاً أن إنساننا المعاصر، العابث، إنما يتذرّع بفلسفات الأنسنة وسواها ليبرّر إخفاقه في اكتناه الحقائق الروحية وعيشها. إننا عوضاً عن أن نواجه ذواتنا برصانة وصدق نميل في معظم الأحيان إلى خلق الأعذار المبنية على الظروف والمعطيات الخارجية المتعدّدة والشديدة التعقيد، لنقول إن التعاليم الروحية للكنيسة أضحت بعيدةً عن الواقع لا صلة لها بالإنسان المعاصر وتطلّعاته وأشجانه.

لكن المحاسبة النزيهة للضمير تظهر غير هذا. ما ينكشف، حين نتحقق عن كثب من واقع المشكلة، أن الإنسان اليوم هو بأمسّ الحاجة إلى القيم المسيحية الروحية التي هي

السبيل الأنجع بل الأوحد إلى حلحلة أزماته وتهدئة اضطرابه. وحدها أسرار الكنيسة قادرة اليوم على انتشال الإنسان من دوامة الظروف الحياتية التي تسيّره وتستعبده. لكن مفتاح هذا كلّه يبقى ذلك الشعور الذي انتاب الإبن الشاطر حين اشتهى أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تلتهمه، ولم يستطع. ساعتئذٍ، يخبرنا الإنجيل، أنه «رجع إلى نفسه... وقال أقوم أذهب إلى أبي وأقول له أخطأت يا أبي إلى السماء وأمامك...» (لوقا ١٥: ١٧–١٨). هذا الشعور بسوء حالنا، وحاجتنا إلى المسارعة إلى المسيح هو سرّ التوبة، الذي به وحده يمكن خلاص إنساننا اليوم.

أسوأ ما في التطور الواسع النطاق لوسائل الاتصال في عالمنا، والتي يقال إنها جعلت الكون قرية صغيرة، أنها عزلت الإنسان بشكل كامل عن أخيه الإنسان وحوّلت العلاقات بين الناس إلى آليات لا حياة فيها ولا عافية: مجرد اتجاه إلى مَن نحتاجه أو لنا مصلحة في صحبته. أليس هذا استمراراً لسقطة آدم التي لعنت الأرض وكل ما فيها فباتت الحيوانات التي كانت تألف وجهه تفرّ هاربة منه وبات عارياً يسعى بالأغطية إلى شيء من الطمأنينة أو راحة البال فلا يجدها لأنه فَقَدَ محبته وفَقَدَ مصدر سلامه واستقراره؟!

لا أشاء أن أنقض حاجة الإنسان في مجتمعاتنا إلى وسائل الاتصال، ولكن ما أود تسطيره أن هذه الوسائل باتت ناجحة في تستّر الإنسان خلف قناع كاذب: الإنسان المعاصر يتصل بالجميع ولكنه لا ينجح في لقائهم الشخصي. لا مجال البتة للقاء الوجوه. قد تشاهد مَن تعرفه على شاشة الكومبيوتر ولكنك تعجز عن أن تجلس إليه لتنظر في عينيه. تتكلم كثيراً مع الناس ولكنك نادراً ما تفتح قلبك لهم، لأنه لا يمكنك أن تأتمنهم على ما في القلب. العلاقات البشرية في مجتمعاتنا غدت هكذا سطحية هامشية. والإنسان بات منغلقاً على ذاته غير قادر على تخطي حدود أنانيتها. نحن اليوم في قريتنا الكونية التي تطال أطرافها أرجاء الكون بأسره ضيّقون أكثر من أي وقت مضى، فالانفتاح الحقيقي إنما يكون في تخطّي حاجز الخطيئة الذي يعرقل الإنسان. كلٌّ منا رازح تحت أعباء آثامه منكمشٌ عليها، يحوّل حياته إلى مخدع لا يلجه أحد ولا حتى المسيح لأن الباب بات مقفلاً بالخطيئة وحب الذات.

«هأنذا واقفٌ على الباب وأقرع، يقول الرب، إن سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤ ٣: ٢٠). المسيح يشاء أن يكسر طوق الانعزال الذي يحيط بنا. هو يدعونا إلى أن ندخل في سر الكنيسة من جديد إذ نطرح على عتباتها آثامنا ونلجها لابسين حلّة جديدة لنشارك الإبن بالعجل المسمّن. فإن المؤمن حين يلتجئ إلى الكاهن وينحني تحت البطرشيل بعد الاعتراف، يدخل في هذا السر الذي به تنفتح القلوب على نعمة الله وعلى كنيسته، فيتصالح مع السماء ومع الناس ويصير من جديد وارثاً لفردوس آدم المفقود. يولد الإنسان من جديد فيستعيد دالته لدى الله وتصير صلاته مسموعة مقبولة. يخرج من ركود الخطايا القابعة في القلب إلى جدّة الحياة، ويلتقي مجدداً الإخوة. ولعل هذا اللقاء المحبّ هو خيرُ سلوة للنفس المتعبة والرازحة تحت الأحمال. هذا اللقاء بالإخوة هو علامة تجدّد وعينا الروحي وولادتنا بالمسيح. هو علامة قبولنا للإنجيل وسكنى ملكوت السموات في داخلنا.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

حينئذٍ، فإن الذين على اليسار المطرودين من الملائكة المتشددين، سوف يصرفون على أسنانهم وينتقلون إلى الوراء بعد اقترابهم من ذلك المكان الرهيب حيث يرمى كل واحد في مكان عذابه. عندئذ سوف يشاهدون القرار النهائي، لأنه لن يبقى من أحد يتوسّل من أجلهم. ولن يكون لهم رجاء في العودة.

كل واحد يذهب إلى المكان الذي أعدّه بنفسه لنفسه، لأنّه لم يرد أن يتوب وينجو من ذلك الغضب. أسمعتم، أيها الإخوة، ماذا ينبغي أن يرث الذين تعبوا وجاهدوا في الحياة الحاضرة، وكيف سيُطرد إلى الهلاك الرهيب الذين تهاونوا ولم يتوبوا؟ سمعتم عن تلك الساعة وذلك اليوم الرهيب.

فلنحب أيها الإخوة، هذا الطريق وتلك الحقيقة لكي نرث الحياة الأبدية بمعونة المسيح ربنا وإلهنا لأنه يليق به المجد والإكرام والسجود مع أبيه الذي لا بدء له وروحه الكلّي قدسه الصالح والمحيي، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

القديس أفرام السرياني